

الفلسفة أساس مشروع مجتمع المعرفة

Philosophy is the foundation of the knowledge society project

الدكتورة: ماني سعادة نادية*

المركز الجامعي احمد زبانه بغيليزان (الجزائر)، foudadnadia@yahoo.fr

تاريخ الارسال 2023-01-29 تاريخ القبول 2023-07-25 تاريخ النشر 2023-12-31

ملخص:

إن عملية إنتاج المعارف تتم دائما وفق ميكانيزمات خاصة بكل فرع معرفي، والفلسفة هي الأخرى تعمل على بلورة نسيجها المعرفي باستعمال ما يناسبها من مناهج وتقنيات، حتى تستطيع أن تبحث عن معالم لتشكيل هويتها ومكانتها، وتتمكن من أن تعقل ذاتها وسط مجتمعتها، ويحدث هذا في مقابل منظومات من المعارف المتنوعة والمعاصرة، وتراكمات من المجاهيل الجديدة، والصدف اللامحدودة، فليس إذن أمام الفلسفة إلا أن تعي بشكل أكبر رهانات معارف مجتمعتها، لتحديد مختلف الرؤى والأفكار اللازمة التي تدخل في التشكيل النهائي للصرح المعرفي المراد إقامته.

الكلمات المفتاحية : الفلسفة، التفكير الفلسفي، المعرفة ، مجتمع المعرفة، التكنولوجيا.

Abstract:

The process of producing knowledge always takes place according to mechanisms specific to each branch of knowledge, and philosophy is also working to crystallize its knowledge fabric, by using appropriate methods, and techniques, which help it to rationalize itself in the midst of its society, and to search for landmarks to form its identity and position, and this In contrast to various contemporary knowledge systems, accumulations of new unknowns, and unlimited coincidences, then philosophy has no choice but to be more aware of the stakes of the knowledge of its society, in order to determine the various visions and ideas necessary, which enter into the final formation of the knowledge edifice to be established.

Keywords: philosophy, philosophical thinking, knowledge, knowledge society, technology.

مقدمة: تنطق الفلسفة عبر مراحلها التاريخية الطويلة بحقيقة مؤداها، أن الفكر الحامل للفلسفة والذي يعمل من خلال آليات معينة، ويستند بالأساس على طرق ومناهج مستحدثة، يوسم بأنه فكر يؤسس لقيام مشروع يعمل

* المؤلف المرسل د ماني سعادة نادية

من خلال إقامة تنمية شاملة على مستوى العلم والمعرفة، وغني عن القول أن المجتمع المتقدم هو ذلك المجتمع الذي يحسن استعمال المعرفة في تسيير أموره واتخاذ قراراته وامكانية تحديد أهدافه وغاياته، وعليه أصبح من الضروري الالتفات إلى ما تمده لنا الفلسفة من تحديثات عقلية وإبداعات فكرية تساعد على توفير المناخ المناسب الذي تنشط بموجبه المعرفة، وبما أن الفلسفة هي فكر المجتمع كما يقال، حرصنا في هذا المقال على توضيح دورها في مواكبة التحولات، وهذا طبعاً وفق ما تشهده المجتمعات من متغيرات ومستجدات على مستوى العلم والمعرفة بفضلها، ولكن في المقابل هناك من يشكك في علاقة الفلسفة بالمجتمع، وعلى أنها غريبة في معادل العلم والمعرفة، وأنها تتجاوز قضايا مجتمع المعرفة لتبحث في قضايا ما وراء هذا المجتمع، ومن هذا المنطلق تتمحور إشكالية هذا المقال حول ما إذا كان للفلسفة فاعلية في بناء مجتمع المعرفة بهدف التأسيس والابداع أم لا.

المعرفة الحاملة للتفكير الفلسفي عبر مراحلها التاريخية: بداية لا يمكننا أن نتحدث عن مجتمع المعرفة دون أن نكون رؤية واضحة عن مفهوم المعرفة، إذ يتناول المجال الفلسفي المعرفة كلفظ له مدلول عام، من حيث أنه يشير إلى "فعل المعرفة في حد ذاته، وإلى ظاهرة المعرفة (علاقة الذات بالموضوع) وإلى النتيجة المستفادة، يتميز مدلوله من خلال معاني الملاحظة والفهم والتصور، ويتعارض مع الظن والتخمين والتقدير". (1)

ومفهوم المعرفة هو تعبير عن قدرة الإنسان على إدراك واستيعاب ما يدور حوله، من خلال تكوين مجموعة من المعاني والمفاهيم والمعتقدات والأحكام والتصورات الفكرية، التي تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به، وذلك "بفعل ما يقوم به الفكر من طرح للمواضيع طرحاً مشروعاً، وهنا تمثيل لموضوع فكري معين، حقيقياً أو واقعياً بالعقل". (2) وما دامت المعرفة لا تدور إلا في مجتمع، فإننا لا نتعرف على هذا الأخير إلا من خلال المخزون الثقافي والعلمي والمعرفي الدال على ذاته. والإنسان من بين الكائنات الحية جميعاً هو الذي يصنع هذا المخزون ويتفاعل معه، وعليه يعتبر مفهوم المعرفة في الفلسفة مفهوماً شاملاً يتضمن أموراً كثيرة أحصاها: فعل المعرفة الذهني، الشيء المعروف، مضمون المعرفة وموضوع المعرفة، أي الإحاطة بكل جوانب المعرفة. هذه النظرة تعكس آراء الفلاسفة الذين حاولوا تفسيرها ووضع أسس لها، في إطار ما أطلقوا عليه إسم "نظرية المعرفة"، هذه الأخيرة التي تبين لنا أن الفلسفة لطالما كانت المهة الأولى في احتوائها ومن ثم التنظير لها. هذا وعلى الرغم من وجود اختلاف معين في وجهات النظر حول المعرفة بالنسبة للعديد من الحقول وهذا طبعاً بما تفرضه التغيرات الحاصلة، إلا أن جميعها لها امتداد فلسفي، وهذا أمر لا يبعث على الغرابة، خاصة إذا علمنا أن الجهود الفكرية التي قدمها الفلاسفة اليونانيون في جميع مراحلها التاريخية بدءاً بالطبيعيين الأوائل، إلى غاية المدارس

المتأخرة التي جاءت بعد "أرسطو" (Aristote 322/384 ق م)، سعت إلى توضيح دلالات ومعاني دقائق الأشياء، حتى يتسنى لهم تعزيز موقفهم وكسب المزيد من الإقناع. ومن هذا المنطلق، سوف نتوقف عند بعض أشهر آراء الفلاسفة القدماء، مركزين بشكل أساسي على توضيح تفسيراتهم الفلسفية والعلمية على حد سواء، ليعد الطبيعيين الأوائل خير مثال نبدأ به الحديث عن ما قدموه في هذا المجال. تبعا للسؤال الافتتاحي لدى كل فيلسوف منهم والمتمثل في ما هو أصل الكون، نلاحظ أن منهجهم في الإجابة اصطنع من التأمل العقلي المغرق في الحسية المطلقة سبيلا لبحثهم وعرض آرائهم. فلقد توصل "طاليس" (Thalés 548/625 ق م) من خلال هذا التفكير إلى معرفة أن الماء هو أصل الكون وأن وجوده ضروري لكافة مظاهر الحياة، واقترح تلميذه أنكسمنس "Anaximène" (480/550 ق م) معرفة مغايرة على أن أصل الكون هو الهواء، واختار "أنكسمندر" (Anaximandre 547/610 ق م) الأبيرون كعنصر مختلف عن العناصر المعتادة (ماء، هواء، نار) وأسماء اللامتناهي. و بهذا اندفع الفلاسفة الأوائل محددين معارفهم على أساس "لا شيء يأتي من العدم، وبأن أصل العالم مبدأ واحد أبدي".³ وهنا تشكلت قطيعة معرفية بين المعرفة الفلسفية القائمة على العقل والتفسير الخرافي الأسطوري.

هذا وتخذت المعرفة في المقابل، لونا آخر من الفهم والتفسير لدى سقراط، ولعبت دورا هاما في تغيير المجتمع الأثيني ومعتقداته، وأحدثت ثورة فكرية تنويرية من خلال آرائه الفلسفية، بفضل محاوراته مع الناس في الطرقات والأسواق والشوارع معتمدا على منهج عقليا دياكتيكا،⁴ وذلك للبحث عن ماهيات الأشياء ولإثبات أركان المعرفة، معتمدا في الكثير من الأحيان على المنهج التهكمي التوليدي، وفيه يتظاهر سقراط بالجهل اتجاه الموضوع المقصود، ومن ثم يوجه إلى خصمه جملة من الأسئلة يكشف من خلالها جهل المعني بالموضوع، كاشفا عن كل الأوجه المبهمة حتى يصل إلى لب الأشياء وجوهرها. هذا ما ندعوه بالعقلانية السقراطية أو "التوليد السقراطي الذي يستخرج الأفكار من الأذهان".⁵ ولا يقل أفلاطون (347/458 ق م) اهتماما بالمعرفة عن سلفه سقراط، إذ كانت آرائه الفلسفية في محاورته الشهيرة الجمهورية، بمثابة القوة الدافعة في تغيير الكثير من مسائل وقضايا عصره، لما تحمله هذه المحاور من رؤى نقدية وأفكار جريئة، أخذ بها مفكري السياسة فيما بعد وهذا بخصوص علاقة الحاكم بالحكومين، وتقسيم طبقات المجتمع، وعن دور الحاكم الفيلسوف في الدولة وأنه يجب أن يكون على رأس السلطة، وهذا طبعا لما كان للفلسفة من أهمية في المجتمع الأثيني، هذا واعتبر أفلاطون الرياضيات لغة العلم المنشود وسلم نرتقي درجاته إن شئنا المعرفة الحققة في عالم المثل. وبذلك تكون المعرفة الرياضية هي أسمى

صور المعرفة القويمة التي بموجبها نفهم الأشياء".⁶ ويعود الفضل إلى أرسطو في خلق أسلوب علمي معرفي جديد في البحث، هو علم المنطق الذي يعتبر مدخل أساسي لكل علم، وذلك بوضع شروط ينبغي مراعاتها لكل تفكير سليم ينشد الصدق واليقين. لقد انطلق أرسطو من الآراء اليقينية حول الأشياء المجهولة والمدركة والمظاهر الموثوق بها من قبل عدد كبير من الناس، واعتبرها حقائق تقودنا إلى إدراك الوقائع ومعرفة منزلتنا في الكون، كما اعتبر الحياة الإنسانية ضرورة تتضمن الحاجة إلى البحث والتحريك، ومطلب تحصيل كل المعارف، وبلوغ الحكمة من خلال التفكير، لقد تصور الحكيم على أنه الإنسان المتحصل على معرفة بجميع الحقائق لكل الأشياء في كل الأزمنة، والقادر على بلوغ السعادة من خلال الرغبة في المعرفة. تلك كانت بعض محاولات فلاسفة اليونان فيما يخص مساهمتهم في تبيان دور العقل وقدرته في اكتساب المعارف والعلوم، ثم مرحلة تاريخية أخرى تستحق منا الذكر فيما نحن بصددده "إنه عصر الاكتشافات الكبرى، وعصر الإصلاح الديني، ونمو الدول القومية، وبداية انطلاق الاقتصاد الرأسمالي والتجاري مصحوبا بنهضة فنية، شملت كل ميادين الفنون والآداب".⁷ لقد كانت القضية الأساسية في هذا العصر، هو تميزه بظهور الحركة الإنسانية، التي أعادت الامتياز للإنسان وفتحت أمامه مجال إلى الابتكار والتجديد وهيأته لرفض قيود الكنيسة والتخلص من هيمنة رجالها على مختلف شؤون الحياة. والذي زاد في إشعاع هذا المجتمع وتدفق الوعي واليقظة فيه، حركة النقل التي خرجت بها أوروبا من عصورها المتوسطة المظلمة إلى عصورها الحديثة المتنورة، والتي "بلغت أوجها في القرن الثالث عشر بحافز من المعارف الإغريقية العربية. التي تلقاها غرب أوروبا عن طريق العرب".⁸ وترتب عن كل ما جرى في هذا العصر أن أصبحت الطبيعة كتابا مفتوحا أمام الإنسان الأوربي، أمعن النظر فيه وسمح لنفسه إعادة التفكير في الواقع بشكل أوسع بكثير مما كان عليه في السابق، وهنا توالى الكشوفات الجغرافية وكثرت النظريات العلمية، وضعفت قيمة المنطق الأرسطي ورفض كمنهج ملائم لدراسة الواقع، ومن ثم انطلق الفلاسفة يبحثون عن معارف جديدة تتماشى مع التحولات العميقة والمتسارعة التي شهدتها المجتمعات الأوروبية، ويمكن أن نشير هنا إلى أول من فكر في تطبيق الرياضة على الطبيعة، وأول من أكد أهمية التجربة، لأنها الطريقة الوحيدة التي لا تخدعنا وهي المصدر الأول للعلوم، وأصل اليقين، وكل علم لا يبدأ ولا ينتهي بها يكون في نظره علما زائفا، إنه سيكون الذي ثار على معارف القدماء وعلى مناهجهم الغير مجدية وأيقن أن أفكارهم ومفاهيمهم لم تقم على أساس صلب، وإنما على مكانة قائلها، فحرص على رفض كل الأفكار الفلسفية القديمة والبدء من جديد، فكان منطق الجديد سبيله الأوحده للتخلي عن كل موروث فكري، إغريقيا كان أو كنيسيا، فجاء منهجه في التفكير مقابلا لمنهج أرسطو القياسي، وأسلوبه في البحث العلمي تجريبي وليس استدلاليا، لأن الاستدلال المحض في نظره من حيث هو وسيلة

للوصول إلى الحقيقة هو أشبه بالعنكبوت، تنسج خيوطا من ذات نفسها، ونسجها منتظم متسق بالغ الدقة والإحكام، ولكنه مع ذلك لا يعدو أن يكون أكثر من مصيدة. كما أن تكديس المعلومات على نحو سلمي وهو الطريقة التجريبية القديمة أشبه ما يكون بالنملة تسعى وتكدح وراء جمع أكداش من المواد الخام. أما طريقة التفكير العلمي الحديثة فتشبه عمل النحلة التي تجد وتسعى مثل النملة سواء بسواء، فتجمع مواد شتى من العالم الخارجي ولكنها على النقيض من تلك المخلوقة الكادحة، تغير وتبدل فيما جمعته من المواد كي تضطرها إلى إخراج ما فيها من كنوز دفيئة. وفي نفس الفترة التي وضع "فرنسيس بيكون" منهجه التجريبي في تكوين المعرفة نادى "ديكارت" بوجوب اتخاذ العقل كوسيلة للحصول على المعرفة، لقد كان هذا الأخير إماما من أئمة الاتجاه العقلي الاستنباطي وعلامة فارقة بين العصور الوسطى والعصر الحديث على حد تعبير "يمنى طريف الخولي"، ليعد أبرز من عبروا عن عدم ملائمة المنطق الأرسطي لهذه الروح العلمية الجديدة في مطلع العصور الحديثة. ومن ثم اقترح "ديكارت" منهجا يقوم على حسن السير بالعقل والبحث عن الحقيقة في العلوم، كما يدل على ذلك عنوان كتابه "مقال في المنهج" حيث قال في بدايته: "الحس السليم أحسن الأشياء قسمة بين الناس، لاعتقاد كل فرد منا أنه مزود به، حتى أن من لا يرضيه شيئا من الأشياء الأخرى لا يرغب في أكثر مما يملك وهو ما يشهد على أن القدرة على إصدار أحكام سليمة موزع بصورة عادلة بين الناس، ولكن لا يكفي اكتساب عقل سليم فإن الأهم هو أن نطبقه بأحسن وجهه."9

لقد أكد ديكارت في هذا النص على أن جميع الناس، رزقوا بهبة طبيعية هي العقل وأن الطبيعة لم تميز بين ألوان وأقاليم، أو جهات، في توزيع هذه الهبة، وبهذا لا نستطيع أن نفرق بين الأفراد في حين نستطيع أن نفرق بينهم في طريقة الاستعمال والتي نعني بها المنهج، ولقد عرفه ديكارت قائلا: "أنه جملة من القواعد المؤكدة التي إذا ما راعاها ذهن الباحث عصمته من الوقوع في الأخطاء، ومكنته من بلوغ اليقين في جميع ما يستطيع معرفته من دون أن يستنفذ قواه في جهود ضائعة."10 يتضح مما سبق ذكره استمرارية واتصال المعارف ماضيها بحاضرها مما يوحي بنفي فكرة القطيعة المعرفية بين تسلسل الأزمان والوقوف عند ترابط الظواهر والأحداث الفكرية العلمية والفلسفية والجمالية وتعيين المقومات الأساسية الاقتصادية والاجتماعية والتي أفضت كلها إلى اقرار أنسنه حديثة.

وعلى هذا كله برز تعريف جديد للإنسان لأن المجتمع الأوروبي غير علاقة الإنسان بالطبيعة منذ نهاية القرن السادس عشر، واكتشف في القرن الثامن عشر أن طبيعته ذات توجه تاريخي وأن مصيره غير محدد، وبالتالي أصبح التأمل في وجوده بصيغ المشروع لا بصيغ الوفاء للتراث القديم. ويفترض هذا تحديدا جديدا للطبيعة الإنسانية، التي

لم تعد تعتبر معطاة كأثر طبيعي أو إلهي مميز، وإنما أصبحت تعتبر كطبيعة كائن قابل للاكتمال قادر بعقله على التحرر من كل قيد. (11) من هنا طرحت مسائل واتجاهات عديدة ذات صلة بالفن والجمال، بالتعلم والتربية، وبرزت مفاهيم جديدة كمفهوم الديمقراطية في الفلسفة السياسية، ومفهوم العلمنة بالنيل من سلطة الكنيسة ومعتقداتها، لذلك تضخم عدد القراء وتم انتشار كم كبير من الأفكار والمعارف، الأمر الذي ساعد على تكوين ما يعرف بالرأي العام المستنير والذي يمكن اعتماده لإصلاح الدولة اجتماعيا وسياسيا. وفي هذه الحالة لم يعد الفيلسوف فيلسوف البلاط وإنما أصبح يتدخل أكثر فأكثر في الحياة العمومية أي أصبح بمثابة المثقف والناقد في نفس الوقت وهذا ما قام به كل من "فولتير" و"مونتيسكيو" و"دالانبار" في تكوينهم لإنسان القرن الثامن عشر. من هنا نرى أن الفلسفة على مر العصور لم تكن منعزلة عن مشكلات المجتمع، و لم يكن الفيلسوف يعيش في برج عاجي يفكر فقط، بل عاش الفلاسفة هموم ومشكلات عصرهم، وليس هذا فحسب بل وضعوا حلولاً وصاغوا مقترحات، وقادوا مجتمعاتهم إلى التقدم والازدهار والرخاء باسم المعرفة العلمية الفلسفية الحققة.

وبالنظر إلى نظرية المعرفة في الفلسفة المعاصرة، نجد أنها جاءت كمرآة عكست العديد من الآراء المختلفة، فتمخضت عنها مدارس ومذاهب عديدة ساهمت في تطورها. هكذا تبلور اللوغس الفلسفي وأسس مسيرة تاريخية قادرة على التفاعل بعمق مع كل معطيات الحياة، "فبحث عن أصل الأشياء والعالم والطبيعة، وبحث كذلك في طبيعة الإنسان وفي علاقته مع باقي تحليلات الطبيعة ومع غيره من البشر، كما بحث في السياسة والدين والأخلاق وفي كل العلوم بوجه عام." 12 ولكن سرعان ما تعرضت الفلسفة لحملة تهوين يقودها البعض ضدها باسم مناهضتها للدين تارة، وباسم الفاعلية العلمية والتكنولوجية تارة أخرى، في الواقع أخذت أزمة الفلسفة أسماء كثيرة : فهناك من تحدث عن "مشكلات" ومنهم من بدت له مجرد "صعوبات" ومنهم من اعتبرها سوء "تفلسف"، أما الجابري فيتحدث عن "أزمة ابداع"، أي جملة المبادئ والمفاهيم والآليات المنتجة للأفكار والمعرفة والايديولوجيا بالمعنى الواسع للكلمة، وفي هذا يرى الجابري " أن الأمر يتجاوز مجرد الصعوبات أو المشكلات، لأن المستهدف ليس كفايات الفلسفة وتطبيقاتها، تعليم مقرراتها، كتبها المدرسية، خريجيها، طرائق تدريسها، وإنما كينونتها، جوهرها ووجودها، وإسمها ذاته". كما أرجع بعض المفكرين العرب أمثال محمد أركون، ناصيف نصار، طه عبد الرحمن، فؤاد زكريا، جورج طرايشي وغيرهم، أسباب أزمة التفكير الفلسفي إلى ما يعرف بمحدودية الابداع في الأوساط العلمية والمعرفية، واستمرار التوتر بين التقليد والحديث، واستمرار الالتباس في علاقة الفلسفة بالدين، أي نزعة التكفير والتشدد الفكري في مجمل المواضيع باختلاف مجالاتها، وهنا تصبح لدينا هيمنة الايديولوجي على حساب الاستيمولوجي المعرفي الذي نقصده في مقالنا هذا.

استحالة بناء مجتمع المعرفة في غياب الفلسفة: منذ الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين توسعت قدرة الانسان المعرفية وأصبح هناك ما يسمى بـ: "ثلاثية اتحاد كل من "التلفاز والهاتف والحاسوب" "القدرة على تسير وانتقال المعارف بشكل هائل وواسع وعلى نطاق بشري غير نخبوي وبدون حدود، لقد ساعدت هذه الثلاثية على ظهور مصطلحات ومفاهيم جديدة حيز الوجود بفعل قدرة الانسان التكنولوجية (13)، كمجتمع المعرفة والسوق الحرة والعولمة وغيرها من المفاهيم الجديدة وعليه، لقد أدت الثورة التكنولوجية في تضاعف المعرفة الإنسانية وتراكمها بسرعة رهيبية، كما ساعدت على إسقاط حواجز المسافات والزمن، وفتح كل محابس تدفق المعلومات والمعرفة بكل أشكالها، من خلال شبكة تواصل تحتية وفوقية سلكية ولا سلكية، وربطت كل البشر في دائرة واحدة مغلقة أتاح لهم التفاعل والتداول وضبط الإيقاع، وأصبح التقدم التكنولوجي هو الحلقة الحاسمة لتحقيق جميع انواع التطورات، وكان من نتيجة ذلك كله أن تحول الاقتصاد العالمي إلى اقتصاد يعتمد أساسا على المعرفة العلمية، أو الاقتصاد المعرفي المبني على المعرفة التي تسفر عنها البحوث المدنية والتكنولوجية. وهي المعرفة الجديدة التي تحولت إلى سلعة أو إلى خدمة أو إلى هيكلية أو إلى طريقة إنتاج. وأصبحت قدرة أي دولة تتمثل في رصيدها المعرفي، حيث تقدر المعرفة العلمية والتكنولوجية في بعض الدول بنحو 80% من اقتصادها. ومعنى ذلك أن أصبح مجتمع المعلومات يرتبط بمفهوم مجتمع التعليم الذي يتيح كل شيء فيه فرصا للفرد ليتعلم ليعرف، ويتعلم ليعلم، ويتعلم ليعيش مع الآخرين، ويتعلم لتحقيق ذاته. مما يفرض على أي بلد أن تتأهل للدخول في مجتمع المعرفة. ولقد أشار عالم الاجتماع الأمريكي "دانيال بيل Daniel bell" إلى مصطلح مجتمع المعرفة عام 1973 واصفا التحول الاقتصادي من اقتصاد صناعي قائم على إنتاج السلع وتسويقها، إلى اقتصاد معرفي قائم على المعرفة الإنسانية إنتاجا وتطبيقا، منذ ذلك الحين كثرت الكتابات في هذا المجال ولعل أبرزها كتابات "بيتر دراكر" "Drucker Peter" التي بدأت عام 1993، والتي طور من خلالها مفهوم مجتمع المعرفة بصورة أوسع وأكثر دقة. هذا والمقصود بمجتمع المعرفة؛ ذاك المجتمع الذي يقوم أساسا على نشر المعرفة وإنتاجها وتوظيفها بكفاءة في جميع مجالات الأنشطة الاجتماعية، كالاقتصاد والمجتمع المدني والسياسة والحياة الخاصة، وصولا إلى ترقية الحالة الإنسانية باطراد، أي إقامة التنمية الإنسانية. يركز هذا التعريف على العمل الفكري والمعرفي الذي يتخلل جل النشاط الإنساني كما وكيفا، بما يجعل منه معيارا أساسيا يقاس به مدى الرقي والتنمية البشرية. وعرف مجتمع المعرفة أيضا بأنه مجموعة من الناس ذوي الاهتمامات المتقاربة، الذين يحاولون الاستفادة من تجميع معرفتهم سويا بشأن المجالات التي يهتمون بها، وخلال هذه العملية يضيفون المزيد إلى هذه المعرفة، وهكذا فإن المعرفة هي الناتج العقلي والمجدي لعمليات الإدراك والتعلم والتفكير. والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو: إذا علمنا أن

الفلسفة اليوم تُتهم على أنها تعاني وضعاً متأزماً، وأن وظيفتها في عصرنا الحالي أصبحت أقل شأنًا عما كانت عليهما قبل، فما مستقبلها ونحن نعيش مجتمعاً إلكترونياً رقمياً؟ هل يمكن لتكنولوجيا المعلومات والاتصال أن تطور البحث الفلسفي وتساهم في نشر المعارف الفلسفية؟ - ما مدى مساهمة الفلسفة في بناء مجتمع المعرفة القائم على الابداع والخلق؟ هل نستطيع الوثوق بدور الفلسفة وهي محاطة في الوقت نفسه بمن يشكك في أهميتها وضرورتها؟

يتفق العلماء والباحثون على أن البشرية ما كان لها أن تبلغ مراحل حضارية متقدمة، لو لا الاعتماد على الفلسفة، فلم يسجل التاريخ أن حضارة واحدة من الحضارات السابقة استطاعت أن تحقق تقدمها العلمي قبل أن تحقق تقدمها الفلسفي، فالحضارة اليونانية مثلاً، لم ترقى إلى الدرجة العلمية مع أقليدس وأرخميدس حتى مرت بالمدارس الفلسفية المتمثلة في المدرستين الطبيعية والفيثاغورية وغيرهما من المدارس، كما أن العرب والمسلمون عرفوا الكندي والفارابي وابن سينا قبل أن يعرفوا ابن الهيثم والخوارزمي والبيروني، ولم تعرف أوروبا نهضتها إلا عندما نشطت الفلسفة جنباً إلى جنب مع العلم، فلم يكن يمكن بكونه إلا نصيراً لأعمال غاليلي وأفكار العلماء القائلة بصلاحية المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجربة، يتضح مما سبق أن الفلسفة في علاقتها بالعلم والعلماء تود أن تجعل من ذاتها نقطة جذب لا تنحصر مهمتها في التأمل وفي ما هو مجرد، بل تتعدى ذلك إلى إقحامها لأذهان العلماء، ومشاركتها لهم في إنجاز نظرياتهم ومعارفهم، وهذا ما أسماه "ألتوسير" بفلسفة العلماء العفوية، حيث يشير في كتاباته إلى أن العلماء يمارسون نوع من الفلسفة الضمنية في عمليات التحليل التي تعقب إنجاز نظرياتهم¹⁴ وما تتميز به الفلسفة في نظر "جيل دولوز" هو "جلبها للمفاهيم الجديدة إنها ليست ذات صفة تأملية، ولا استبطانية تفكيرية، بل إنها خالقة وثرية من حيث أنها لا تتوقف قط عن خلق وابتكار المفاهيم الجديدة"¹⁵ كذلك فإنه ليس من باب الصدفة أن نرى أوروبا المتقدمة علمياً وتكنولوجيا اليوم، متقدمة فلسفياً في نفس الوقت، حيث تغطي الدراسات الفلسفية فيها بمكانة مرموقة وصلت إلى حد تخصيص كليات بأكملها لها (فرنسا، ألمانيا، كندا)، وإلى تحول عواصم عالمية فيها إلى عواصم للفلسفة، (باريس، موسكو) وبالتالي إلى مصدر للعديد من الدوريات والمجلات والكتب الفلسفية المتخصصة، التي تنفق عليها اليوم بسخاء. وفي الاتجاه نفسه يؤكد "جون ديوي" أن الحضارة ليست إلا وليدة الفلسفة وأن الفلسفة بدورها من نتاج الحضارة وليس ثمة فارق حاسم بين الفلسفة ودورها في تاريخ الحضارة، فإذا عرفت مهمة الحضارة وحددت خصائصها التي تميزها أدركت تعريف الفلسفة نفسها. فوظيفة الفلسفة أن تنشأ نماذج يجرى على نمطها التفكير ويسير بمقتضاها السلوك، وبها تتقدم الحضارة، وبغير الفلسفة لا تكون حضارة، بل استخدم "ديوي" في إيضاح وظيفة الفلسفة ذلك التعبير الذي قاله

من قبل "كارل ماركس" أن مذاهب الفلسفة منذ الماضي السحيق، اقتضت على تفسير طبيعة العالم بطرق شتى (عقليا وتجريبيا) ولكن مهمة الفلسفة ينبغي أن تكون العمل على تغييره، وبتغيير العالم يغير الناس أنفسهم ويستحدثون قوانين جديدة تهيمن على مجرى التاريخ هذا وتعبّر رؤية الفيلسوف الأمريكي "جون ديوي" عن الترابط الحاصل بين الفلسفة والتربية أحسن تعبير عندما قال: " أن التفكير الفلسفي الأوروبي في مبدأ نشأته هو أبلغ شاهد على وجود علاقة وثيقة بين الفلسفة والتربية، وإذا قلنا التربية هنا نقول بطريقة أو بأخرى المعرفة، فليست الفلسفة المرتبطة بالتربية في نظره مجرد تطبيقا خارجيا لأفكار محضرة على نظام عملي ذي أهداف وأصول مختلفة عنها تمام الاختلاف، ولكنها صوغ صريح للمشاكل التي تعرض لنا حينما نريد تكوين العادات العقلية والخلقية المثلى من وجهة نظر ما في الحياة الاجتماعية من صعاب، إذن فأشد التعاريف نفاذا إلى معنى الفلسفة هو أنها نظرية للتربية والمعرفة من حيث نواحيها وخططها العامة.(16) بصفة عامة الفلسفة ليست كما يتصورها البعض احتكارا على الفلاسفة والمشتغلين بها، وإنما هي موجودة عند أي إنسان عادي يتمتع بملكة العقل، وهبة التفكير التي تميزه عن سائر المخلوقات، فاجتهاد الإنسان في معرفة ما يحيط به من أشياء وأسرار وعلل معرفة تامة وصحيحة، يدل على أنه يتفلسف بطريقة تفكير معينة وفي هذا يقول "كارل ياسبرس" " لا مفر من الفلسفة فهي ماثلة في المجتمع، في الأمثلة المأثورة، وفي الاقتناعات السائدة، وفي التصورات السياسية وبوجه خاص في الأساطير منذ بداية التاريخ"، ويقول أرسطو: إن الذي يرفض الفلسفة يتحتم عليه أن يتفلسف " وبهذا المعنى لا تزول الفلسفة من الحياة الإنسانية وهي ملازمة للإنسان طالما هو موجود. (17) من هنا نتبين خطأ وخطر أولئك الذين يناهضون الفلسفة اليوم خاصة في عالمنا العربي الإسلامي، كما نتبين كذلك مدى سذاجة حججهم في تلك المناهضة، مناهضة ترغب في التطلع إلى مستقبل تصنعه المادة و التكنولوجيا لا الروحانية أو الأخلاق أو العلوم الإنسانية النظرية، فتوهم بعض مفكرينا أن التخلص من قيمنا الروحية والاجتماعية، والتخلي عن العلوم الاجتماعية النظرية وغير المحدية وهي العلوم التي لم نصل فيها بعد حتى إلى نصف المرحلة التي وصلت إليها أوروبا أقصر طريق للحصول على التكنولوجيا الغربية، 18 متناسين أنه في غياب أرضية حضارية ونفسية واجتماعية قادرة على استيعابها لن تفيدنا كثيرا. ومن البديهي أن مثل هذه الفلسفة لن تقوم بدورها إلا بتصحيح نظرتنا إليها وفي كل ميادين الحياة، وذلك بتوسيع نظرتنا إلى ديننا وديننا ونؤمن بضرورة عدم الفصل قط بينهما كذلك بين النظر والعمل ، وبين التأسيس والتطبيق وبهذا نحارب كل شكل من أشكال الجمود والتخلف ونعلي من شأن العقل الذي يعمل بموجب ما تمده له الفلسفة من آليات، و لن يتحقق هذا المشروع القابل للتطبيق إلا بالتطوير الكيفي والكمي لتدريس الفلسفة في مدارسنا وجامعاتنا ومعاهدنا ، ذلك التطوير الذي يجب أن يشمل الشكل والمضمون

وأن يمتد بالفلسفة إلى كل الأقسام الجامعية مهما كان تخصصها، لأن الطلبة المتخصصين سيظلون مهما بلغت درجة تخصصهم العلمي، يواجهون وي طرحون قضايا لا تستطيع غير الفلسفة مواجهتها وتقديم الحلول الملائمة لها، مثل مشكل الغائية الأخلاقية للعلم من حيث الأهداف والتائج، ومشكل الحق وحدوده في الحياة، والحرية الإنسانية وقيودها، والوجود الإنساني ومعناه، والموت ودلالاته ... إلى غيرها من التساؤلات التي لا يمكن لأي عالم مهما بلغ تخصصه أن يفلت من إلحاحها. وعلى حسب محمود يعقوبي يجب على المتوجهين إلى الدرس الفلسفي في الجامعات الاستيعاب الجيد لمضامينه، ويتطلب هذا كفاءة عالية تخلق لنا هوامش تواصل تنتهي بتحقيق جملة من الكفاءات تترد كلها إلى تلقين التحكم الفعلي في آليات الفكر النسقي من جهة، وإلى خوض تجارب فعلية في طرح القضايا الفلسفية والارتقاء إلى محاولة حلها من جهة أخرى. على كل حال للفلسفة ضرورة إنسانية لأنها تضيف المعنى على الإنسان من أجل إشباع حاجاته المعرفية حول ذاته والعالم الذي تجتاحه الثقافة الرقمية والتكنولوجية التي تُهمش الوجود الإنساني.

نظرة ختامية

ومن خلال هذا العرض السريع يمكن القول أن أمام الثورة العلمية والتكنولوجية الهائلة التي تصاحب مجتمع المعرفة، لا بد من توفر نظام تعليمي فلسفي يحقق الجودة، ويمنح الفرصة للحصول على خبرات ومعارف تلي الاحتياجات الآنية والمستقبلية لدفع عجلة التنمية الإنسانية الشاملة. وإن كان هذا يعني شيئاً فإنه يعني أن مجتمع المعرفة يرتبط بمفهوم مجتمع التعليم الذي يتيح كل شيء فيه فرصاً للفرد ليتعلم ليعرف، ويتعلم ليعمل، ويتعلم ليعيش مع الآخرين، ويتعلم لتحقيق ذاته. وكل ذلك يتطلب ضرورة وجود تفكير فلسفي على مستوى تعليمي عالٍ ومتطور يستعمل لمجابهة الصعاب واقتراح الحلول، وقادر على الإبداع والابتكار، وهذا يمثل تحدياً لنظم التعليم في مختلف المجتمعات، ويلقي عليها مسؤولية سرعة تطوير نفسها بحيث تصبح مجتمعات منتجة للمعرفة.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- el-hélou, Abdou, Le vocabulaire philosophique, Beyrouth :
librairie de Liban, 1994p16.
- 2-Legrand Gérard, Dictionnaire de philosophie, Paris: Bordas, 1995,
P, 63

- 3- نفاذي السيد، الضرورة والاحتمال بين الفلسفة والعلم، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، سنة 1983، ص19.
- 4- بلانشي روبر، نظرية العلم (الأبستمولوجيا) تر اليعقوبي محمد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، سنة 2006، ص62.
- 5- سونفيل أندريه كونت، تر علي بو ملح، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، سنة 2008، ص34.
- 6- بلانشي روبر، المرجع نفسه، ص43.
- 7- التنوير والتسامح وتحديد الفكر العربي، مجموعة من الباحثين، تونس: المجتمع التونسي العلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، ط1، سنة 2007، ص44.
- 8- المرجع نفسه، ص48.
- 9-R,Descartes, discours de la methode , éd Gallimard, 1partie, p126.
- 10 التنوير والتسامح وتحديد الفكر العربي، المرجع نفسه، ص250.
- 11- النشار مصطفى، مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1998، ص138.
- 12الحسين الزاوي،الفلسفةالواصفة-مقاربة لأشكال التعبير في الخطاب الفلسفي المعاصر، مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى، سنة 2002، ص8.
- 13- يفوت سالم، بن عبد العالي عبد السلام، درس الأبستمولوجيا ونظرية المعرفة، دار الشؤون الثقافية العامة، ط2، س1996، ص20.
- 14- لحسين الزاوي،الفلسفةالواصفة-مقاربة لأشكال التعبير في الخطاب الفلسفي المعاصر، مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى، سنة 2002، ص71.
- 15-المرجع نفسه.
- 16(وائل عبد الرحمان التل، أحمد محمد شعراوي، أصول التربية الفلسفية والاجتماعية والنفوسية، دار الحامد، عمان، 2007.ص20)

17- د. توفيق الطويل : أسس الفلسفة، دار النهضة العربية ط 7، 1976، ص 275

18- Boukhari HAMMANA : les sciences sociales et le tiers-monde , le cas de l'algérien sciences sociales aujourd'hui, Alger: OPU , p40 , 1986